البعثات الاستكشافية الفرنسية في الصحراء الجزائرية خلال القرن 19 ودورها في التوسع الاستعماري في المنطقة – بعثة هنري دوفيري (Henri Duveyrier) أنموذجا ما بين (1857–1863)

French expeditions to the Algerian Sahara during the 19th century and their role in colonial expansion in the region - Henri Duveyrier's expedition (1857-1863) as a model

أد. فكاير عبد القادر *

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة– الجزائر

fkairaek@yahoo.fr

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025/04/18	2025/06/23	2025/07/31

الملخص:

تتناول هذه الدراسة بعثة هنري دوفيري إلى الصحراء الجزائرية التي وقعت ما بين (1857–1863)، والتي زار خلالها عدة مدن ومناطق في الصحراء الجزائرية .وقد اخترت أن أعالج في هذه الدراسة بعثة هنري دوفيري (Duveyrier Henri) الذي يعد من أبرز الرحالة الفرنسيين، لقيامه برحلات عديدة إلى بسكرة وغرداية والقليعة، وإلى غدامس، ومنها توجه إلى منطقة التاسيلي حيث يوجد طوارق الشمال ما بين(1857 – 1863)، حيث أقام بينهم لمدة سنة وتعلم لغتهم. وقد خلف عدة مؤلفات منها كتابه عنوانه "طوارق الشمال" الذي صدر سنة 1864، كتاب دراسات عن تونس (1881)، وكتاب آخر عن الصحراء الجزائرية والتونسية (1905). إن الهدف من هذه الدراسة هو تبيان مساعي فرنسا وراء إرسال بعثة دوفيري وغيرها من البعثات الاستكشافية التجسسية إلى منطقة الصحراء الجزائرية، وأهداف فرنسا من إدماج الصحراء الجزائرية ضمن منطقة الساحل الإفريقي التابعة للامبراطورية الفرنسية، والتي كانت في هذه الأثناء محل تنافس بين القوى الاستعمارية الكبرى وخاصة بين فرنسا بريطانيا. أما عن النتائج التي تم الوصول إليها أن هذه العملية الاستكشافية التي قام بها دوفريي جاءت بعد رحلات فرنسية

* المؤلف المرسل

سابقة في بداية القرن التاسع عشر، على أن أهم نتيجه يمكن ذكرها هي أن هذه الرحلة وغيرها رمت إلى دراسة السكان والطبيعة الجغرافية للمناطق الصحراوية وتحصيل مختلف المعلومات عن المنطقة لتكون أداة للسياسة الإستعمارية الفرنسية.

الكلمات المفتاحية: الصحراء الجزائرية؛ هنري دوفيري؛ التوسع الاستعماري الفرنسي؛ الرحلات الاستكشافة؛ القرن التاسع عشر.

Abstract:

This study deals with Henri Duveyrier's expedition to the Algerian Sahara, which took place between 1857 and 1863. During this trip, he visited several cities and regions in the Algerian Sahara, such as Biskra, Wadi Righ, Wadi Souf, Ouargla, Touggourt, and the Tuareg region. In this study, I have chosen to address in this study the Henri Duveyrier mission, which is one of the most prominent French travelers, because he made trips to many Algerian desert regions, including the Tasili region, where the residents of "northern Tuareg " reside,Who stayed between them for a year and learned their language.He authored several books, including a book entitled "The Tuareg of the North," published in 1864, a book entitled "Studies on Tunisia" (1881), and another book on the Algerian and Tunisian Sahara (1905). The aim of this study is to demonstrate France's efforts behind sending Duveyrie's expedition and other exploratory and spy missions to the Algerian Sahara region, and France's goals in incorporating the Algerian Sahara into the Sahel region of the French Empire, which was at the time a subject of competition between the major colonial powers, particularly France and Britain.As for the results reached that this exploratory process came after previous French trips at the beginning of the nineteenth century, that the most important result can be that this trip and others threw the study of the population and the geographical nature of the desert regions and the collection of various information about the region to be a tool for French colonial policy.

Key words: Algerian Sahara; Henri Duveyre; French colonial expansion; exploratory voyages; 19th century**.**

مقدمة:

لقد بذلت السلطات الاستعمارية الفرنسية بعد مرور أكثر من نصف قرن من احتلالها للجزائر جهودا من أجل التوسع في المناطق الجنوبية الجزائرية ؛وهي منطقة الصحراء. وذلك عبر استمرارها في بعث المكتشفين إلى المنطقة قصد الحصول المعطيات الطبيعية والبشرية للمنطقة. ويعود اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية إلى ما قبل احتلالهم للجزائر سنة 1830، بداية من رحلة فردريك كايو (Frederic Cailliaud) خلال سنوات (1818-1822)، ورحلة روني كايي (René Caillié) خلال سنوات 1824-1828، الذي كان عازما على الدخول إلى تمبوكتو. وباعتبار الجزائر بوابة للصحراء وإفريقيا الداخلية، زاد تصميم الفرنسيين على احتلالها، فتم افتعال الذرائع وتم غزوها في سنة 1830. لكن الثورات التي واجهوها في الشمال عرقلت تقدمهم نحو احتلال الصحراء، ونظرا لأهمية الجزائر بالنسبة إلى فرنسا من حيث عمقها الصحراوي، ودت فرنسا إلى ربط مستعمراتها في القارة الإفريقية انطلاقا من الجزائر، وهذا ما جعلها ترسل البعثات الاستكشافية والتجسسية. ولذا سنسلط الضوء في هذا العرض على بعثة هنري دوفيري (Duveyrier Henri) الذي يعد من أهم الرحالة الفرنسيين الذين تنقلوا بين العديد من المناطق الصحراوية الجزائرية خلال الفترة ما بين (1857 - 1863). وننطلق في دراسة هذا الموضوع بناء على إشكالية تتمثل صيغتها في: " **رحلات هنري دوفيري إلى الصحراء الجزائرية دوافعها مسارها وغاياتها"**. يستدعي معالجة هذه الإشكالية الإجابة على التساؤلات التالية: ما هي بواعث رحلات هنري دوفيري إلى الصحراء الجزائرية، ما هي المناطق التي زارها؟ ما هي أهم النتائج التي ترتب عن رحلاته؟ إن الهدف من هذا البحث هو إعطاء نظرة على المناطق التي زارها دوفيري والمسارات التي سلكها للوصول العديد من المدن والمناطق الصحراوية الجزائرية وتتمثل في: بسكرة ووادي ريغ، ووادي سوف، ورقلة ، توغرت، و ختم زيارته إلى منطقة الهقار. كما امتدت رحلته إلى بعض المناطق من

الأراضي التونسية والليبية. أما عن منهجية الدراسة فتتمثل في البداية وضع نبذة عن حياة هنري دوفريري والوقوف على المواقف التي عاشها في حياته ما جعلته يلج إلى حياة الاستكشاف والمغامرة، وتتبع المناطق التي زارها في الصحراء الجزائرية، وتعاليقه عنها.

1- نبذة عن حياة هنري دوفيري (Duveyrier Henri):

ولد هنري دوفيرييه(Henri Duveyrier) في باريس، شارع لا تشوسيه دانتين(la Chaussée d'Antin)، في 28 فبراير 1840. كان والده، تشارلز كونستانت أونوريه دوفيرييه(Charles-Constant-Honoré Duveyrier) (1803-1866) رجلًا أديبًا، ومؤلفًا للأعمال السياسية والمسرحيات، وقد اجتهد في العمل، يتردد على سان سيمونيين(les saints-simoniens). وهو مقرب من بروسبر إنفانتان(Prosper Enfantin)، الأب الروحي للحركة، والذي رافقه في الجماعة التي تأسست في مينيلمونتان(Ménilmontant) عام 1828.

والدته، إلين كلير(Ellen-Clare)، المولودة ديني(Denie)، وهي انكليزية، وهو ما يفسر ورود الاسم الأول لابنها الذي هو مكتوبًا إما هنري(Henri) أو هنري(Henry). يصفها زوجها بأنها "امرأة صغيرة رقيقة، إنكليزية، وكاثوليكية تقية للغاية". توفيت إلين دوفيرييه(Ellen Duveyrier) قبل الأوان بسبب مرض السل، في باسي(Passy) (أوت دو سين) (Hauts-de-Seine) بالضواحي الغربية لباريس، في 4 يونيو 1854، تاركة زوجها مع أطفالهما الثلاثة، هنري، الأكبر، الذي كان يبلغ من العمر آنذاك أربعة عشر عامًا، وبيير، أصغرها بعمر ثلاث سنوات. وماري من مواليد 1849[1].

بعد ثلاثة أشهر من وفاة زوجته، قرر تشارلز دوفيرييه إرسال ابنه الأكبر لمواصلة دراسته في ألمانيا. ليس لديه الكثير من الثروة ويريد أن يرى طفله يجد وظيفة في أسرع وقت ممكن. اختار له كلية في بافاريا(Bavaria)، في لوتراخ(Lautrach) في الجنوب الألماني، حيث

مكث هنري لمدة عام تعلم خلالها اللغة الألمانية. لقد أبهره علم اللغة أيضًا، وفي العام التالي، بعد أن ترك لوتراخ اتجه إلى كلية إدارة الأعمال في لايبزيغ(Leipzig)، التي بقي فيها من نهاية عام 1855 إلى بداية عام 1857. وخلال هذه الفترة، أثناء التحاقه بالمدرسة، تلقى دروسًا في اللغة العربية على يد المستشرق الدكتور فلايشر(Fleischer)[2].

لم يكن قد بلغ السادسة عشرة من عمره بعد، ووفقًا لمعلومات سيرته الذاتية المكتوبة كان قد تصور مشروعا لاستكشاف جزء غير معروف من القارة الأفريقية[3]. ولما عاد إلى باريس، فكر بجدية في القيام برحلة استكشافية أولى، وكان قد أتقن مهاراته في علم المعادن وعلم النبات وعلم الحيوان.لقد تبنى تشارلز دوفيرييه على نطاق واسع المشاريع التي شكلها ابنه لدرجة أنه وضعه على الفور في وضع يسمح له بالبدء في الاستعداد لتحقيقها، على الرغم من أنه كان يرغب في توجيه ابنه نحو التجارة والأعمال. كما تم شراء كافة الوسائل اللازمة[4].

وفي عام 1857، دعاه صديق والده الذي كان يعيش في الجزائر، الدكتور أوغست وارنييه (Dr. Auguste Warnier)، للانضمام إليه هناك. حصل هنري دوفيرييه على موافقة والده وانطلق إلى مرسيليا في 23 فبراير 1857[5]. ومنها انطلق إلى الجزائر التي وصلها 26 فبراير، بدأ رحلته إلى القندوري(Kandouri)، على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا غرب الجزائر العاصمة، الواقعة على مسافة ليست بعيدة عن بحيرة حلولة. كانت منطقة القندوري مقر إقامة دكتور وارنييه، والذي كان له فيما بعد تأثير كبير على حياة هنري دوفيرييه وعمله.

وفي 8 مارس، خرج في رحلة نحو الجلفة والأغواط، برفقة أوسكار ماك كارثي(Oscar Mac-Carthy)[6]، وصل هنري دوفيري والجغرافي الشهير إلى الأغواط في 24 مارس 1857، بعد توقف عند ضريح مرابط سيدي مخلوف. وفي الأغواط التقى برجل تارجي(Targui) يدعى محمد أحمد أرسله إخنوخن(Ikhenoukhen)،

والذي كانت تربطه به علاقات ممتازة. وربما كان هذا هو السبب وراء الاستعداد الذي حدد رحلة هنري دوفيري إلى الطوارق. على الرغم من الأغواط تقع على بعد 400 كيلومتر جنوب الجزائر العاصمة، إلا أنها لم تحتلها فرنسا إلا قبل خمس سنوات (1852) . وفي منتصف أبريل عاد عبر بوزيد وقائد جلول.

بعد رحلته التجريبية، نشر دوفيري، في "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية" الصادرة في برلين"، (Zeitschrift der deutscken morgenländischen Gesellschaft)، مذكرة عن أربع قبائل جزائرية هي: بني مناصر، والزواوة، والمزابيين، والطوارق أزججر(Touareg Azdjer)، عنوانها "ملاحظات عن أربعة قبائل بربرية، تم جمعها خلال رحلة في الجزائر إلى بحيرة حلولة وإلى الأغواط في فبراير ومارس وأبريل 1857"[7].

خلال رحلتة إلى لندن، حيث يعيش فرع من عائلته، وهناك اتصل بهنري بارث(Henrich Barth)[8] الذي كان مشغولًا آنذاك بكتابة تقرير عن رحلاته. وتحدث معه عن عزمه على القيام برحلة في الصحراء الكبرى، فزوده بارت بالنصائح ومن ثم توثقت العلاقة بينهما، يقول دوفرييه غداة وفاة بارت: «إن بارث، رسائله المليئة بالنصائح الودية والإشارات الثمينة، قد سهر من بعيد على نجاح محاولتي، فاتحاً لي وجهات نظر جديدة، منبهاً إياي إلى وقائع بالغة الأهمية لفتت انتباهي. وبعث إليّ برسالة مكتوبة باللغة العربية وموجهة إلى أصدقائه في الصحراء الكبرى والسودان، لكي يقدموا لي يد المساعدة عند الحاجة» [9].

وبعد عودته من إنكلترا في منتصف عام 1857، عزم هنري دوفيرييه على القيام برحلة استكشافية إلى قلب الصحراء. وهكذا أمضى دوفرييه الثلاثين سنة الأخيرة من حياته في باريس، مقيماً بمنزله في سيفر(Sèvres)، يجتر أحلامه في القيام برحلات استكشافية جديدة في بلاد الطوارق وفي قلب الصحراء الكبرى، دون أن يستجيب لهذه الأحلام أحد

في الجهات الحكومية الفرنسية، خصوصاً بعد زوال حكم نابليون الثالث في سنة 1870 بعد هزيمة فرنسا على يد ألمانيا، وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة[10].

وكانت نهاية هنري دوفيرييه عن طريق الانتحار، هذا الرحالة والجغرافي الذي حصل على وسام جوقة الشرف وهو في الحادية والعشرين من عمره، ذاق المجد ثم النقد والإقصاء. بعد أن أسيء فهمه من قبل السياسيين، ونُسي ظلماً، غرق في الكآبة وانتهى به الأمر بإطلاق النار على رأسه وهو في الثانية والخمسين من عمره، كان ذلك في سنة 1892. وقد نعتت صحيفة (Journal_des_débats...) الصادرة في باريس، في عددها الصادر يوم 14 mai 1892 . بمقال مطول ذكرت فيه سيرة والنشاط الكشفي لهنري دوفيرييه ,Journal_des_débats_politiques_et littéraires

2- رحلات دوفيرييه إلى الحواضر الصحراية الجزائرية الأهداف والمسار :

افتتح دوفيرييه أهداف رحلته إلى الجزائر في كتابه "طوارق الشمال" الصادر في عام 1864، بقوله: « إن رحلة الاستكشاف التي قمت بها بين الغليعة غربا، وزويلة شرقا، وبسكرة شمالا، والغات جنوبا، كان لها هدف ثلاثي يتمثل في جمع بيانات جغرافية عن الصحراء كانت مفقودة وفتح علاقات أساسية مع شعوب هذه المنطقة الوسيطة قبل إقامة علاقات سياسية وتجارية بين الجزائر وإفريقيا الوسطى؛ وأخيرًا، أن أجهز نفسي، من خلال تجربة طويلة في الحياة الإفريقية من خلال دراسة الرجال والعادات واللهجات، لرحلة ثانية يكون هدفها الأكثر خصوصية هو استكشاف المناطق السودانية » [11].

في 8 ماي 1859، نزل الرحالة الفرنسي هنري دوفيرييه في سن 19 سنة، في مدينة سكيكدة، هذه المحطة البحرية القديمة في شرق الجزائر، والتي أصبحت يطلق عليها اسم ميناء قسنطينة. واتجه جنوبًا على الفور للوصول إلى الميدان المتوقع لعملياته في أسرع وقت ممكن. فعبر قسنطينة، وقطع الهضبة، ولامس آثار لامبيز وعبر مضيق جبل الأوراس، المتميز

بكتلته العالية على الشرق الجزائري، ومن هناك انحدر إلى بسكرة، التي تقع على هذا الجانب، بوابة الصحراء. هذا هو المكان الذي بدأ فيه العمل نشاطه[12].

غادر بسكرة يوم 13 جوان متوجها إلى القرارة إحدى مدن الميزاب بعد مسيرة خمسة أيام. وفي 21 جوان دخل إلى غرداية ومنها توجه إلى متليلي على أمل الالتقاء ببعض الطوارق للحصول على مساعدتهم من أجل الدخول إلى بلادهم. وفي 28 أوت غادر متليلي متوجها إلى المنيعة التي وصلها في فاتح سبتمبر، غير أن سكان المدينة احتجزوه، ثم طلب منه مغادرة المدينة، فتوجه إلى الأغواط. وفي نوقمبر 1859 غادر الأغواط متوجها إلى القرارة ثم وصل إلى تقرت ومنها اتجه إلى بسكرة وأخيرا وصل إلى قسنطينة ليستريح بعض الوقت[13].

وبداية من أول فيفري 1860 واصل دوفيرييه رحلاته فزار خلال هذه الجولة عدة مدن صحراوية وهي بسكرة، وادي ريغ، وادي سوف، ورقلة ، توغرت، ثم إلى الجريد في الجنوب التونسي، فزار قابس وقبيلي(Kebilli) ونفزاوة(Nefzaoua)، ثم اتجه شمالا نحو قفصة وتوزر. وفي 3 أفريل قرر العودة إلى بسكرة مرورا بالشبيكة (Chebeka) وتامغزا (Tamerza)، ثم اتجه غربا نحو بسكرة التي دخلها يوم 10 أفريل 1860[14].

2-1- رحلته إلى بسكرة 1860:

خلال زيارته للمدينة التي وصفها بالمستعمرة الصغيرة وضع قائمة للقبائل التي كانت تقطنها وعددها 26 قبيلة، وذكر أنه سيتولى إكمالها لاحقا. والملاحظ أنه فهم لغات هذه القبائل باستثناء ثلاثة فقط وهي قبائل دورا، وكانيمبو، ومانغا[15].

ووضع وصفا لطبيعة مساكنهم فذكر أن هؤلاء الزنوج يقيمون في قرية صغيرة من الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل، تقع في المزارع بالقرب من بسكرة الجديدة، كما وصف ألبسة هؤلاء السكان فقال: « ترتدي النساء أزياء بلادهن، بينما يختار الرجال، من أزياء جميع الشعوب التي يتواصلون معها، كل ما يمكنهم الحصول عليه من الزينة والخرق

ذات الألوان المبهرجة» [16]. وخلال تجوله في وادي بسكرة وصف تربته ومياهه والكائنات الحية الموجودة فيه مثل الأصداف والرخويات[17]، ثم تحدث عن كيفية قضائه الفترة الصباحية من يومه والفترة المسائية، بمراقبة طلوع الشمس ومقارنته بباريس، ورؤيته لأشجار النخيل العالية بالقرب من مدينة بسكرة، وكانت هدفه من ذلك هو« إظهار كيفية العمل لهؤلاء السادة».وصف بعد ذلك زيارته لحمام الصالحين.فقال أن « الحمامات محاطة بمبنى، مع غرف لراحة السباحين، المياه مالحة ولها أيضًا رائحة قوية من كبريتيد الهيدروجين، كانت درجة حرارة الماء على حافة البركة» [18].

أفصح دوفيرييه عن سبب هذه الرحلة وهي رغبته في « الحصول على الأسماك التي تعيش في الساقية والتي تخرج من المنبع، والتي لا تزال تحتفظ بدرجة حرارتها العالية لفترة طويلة، بل وأكثر من ذلك بالأملاح المشبعة بها. هذه الأسماك، التي تمكنت من الحصول على بعض العينات منها، تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في المياه الاردوازية لوادي ريغ؛ إنهم يعيشون في الماء الذي يمكن أن تصل درجة حرارته إلى 30 درجة. — في نفس الساقية ينمو نبات فلكي(Acotylédone)، بأوراق خيطية دقيقة جدًا، وهو نفس النبات، على ما أعتقد، وهو شائع جدًا في ساقية توغورت» [19].

وفي طريق عودته من منبع الحمام سجل قائمة للنباتات التي أثارت انتباهه وهي باجول(Bageul)، الرمث (remeth)، كلخا (kelkha)، ملحشنان (methennân)، رهارديج (rhardeg)، السدرة (sedra)، قندول (gandoul) ويدعى كذلك بو شوشة(bou choucha). وتحدث بعد ذلك عن المدرسة العربية الفرنسية ببسكرة التي كان يديرها ضابط صف سابق يدعى كولومبو(Colombo) فقال عنها:« إنها مدرسة يتعلم فيها الشباب العربي اللغة الفرنسية ومبادئ علومنا. تحظى هذه المدرسة بحضور جيد إلى حد ما، وقد تمكنت من رؤية التقدم المثير للاهتمام الذي أحرزه طلاب السيد كولومبو. وسيدهم ضليع في علم العربية، ويزداد علمه كل يوم بالدراسة

الجادة. راتبه 1800 فرنك. سنويا؛ لديه مساعد، عربي من قسنطينة، تلميذ للسيد شربونو(Cherbonneau)، وأعتقد أنه يتقاضى راتبا قدره 100 فرنك. سنويا » [20].

2- 2- رحلته إلى وادي ريغ:

وفي أول فيفري 1860 غادر دوفيرييه مدينة بسكرة متوجا وادي ريغ ومنها مر على عدة مناطق نذكر منها برج طاير- راسو حيث استقبله القائد سي خالد وقدم له أكلة البربوشة، ثم غادر على الفور للوصول إلى الشغة (Chegga) قبل حلول الظلام، لكنه وصلها بعد غروب الشمس. وأشار إلى أنه في الطريق، صادفت خمسة أو ستة آثار صغيرة على شكل أهرامات ومقبرة، كلها مجمعة معًا في مساحة بضعة أمتار مربعة؛ وهو نصب تذكاري أقامه أولاد موليت (Oulad Moulet) لتخليد ذكرى الهزيمة التي ألحقها بهم الشريف في هذا المكان[21].

وفي اليوم الموالي 2 فيفري غادر المكان وصل في وقت مبكر جدًا إلى أم التيور(Oumm-et-tiour). وهي قرية عربية صغيرة أنشأها الفرنسيون تضم اليوم 28 منزلاً مأهولاً ومسجداً مميزاً بمئذنته الجميلة. هناك عدة مئات من أشجار النخيل التي يتراوح عمرها بين عامين وثلاثة أعوام، وبالتالي ستؤتي ثمارها في العام المقبل. واعتقد دوفيرييه أن معظم السكان من قبيلة بني سليم. ثم تحدث عن الشغة، التي توجد بها حوالي خمسة عشر منزلاً فقط على الأكثر، مع احتساب تلك التي تشغلها الحدادات والموظفين، وما إلى ذلك. ولا يوجد في الشغة أشجار النخيل، وهذه هي السنة الأولى التي يزرعون فيها[22].

وفي اليوم الموالي 3 فيفري ذهب إلى المغير (Merhaier)، أول واحة في واد ريغ، من جهة الشمال. وهنك أخبره شيخها أنه يمكنه المغادرة في اليوم التالي في أي وقت يناسبه، في اتجاه وادي سوف، برفقة خمسة رجال سيرًا على الأقدام كمرافقين ومرشد على ظهور الخيل. ووصف بلدة المغير فقال أن مزارع النخيل بها، التي تسقى بالينابيع الارتوازية(artésiennes)، فقيرة جدًا في المنتجات النباتية، على الأقل هذا الموسم. بل

إن أشجار الفاكهة نادرة جدًا هناك؛ بالكاد يمكنك رؤية شجرة تين أو شجرة خوخ ضالة هناك، ومياه الخنادق تكثر فيها الضفادع[23].ثم ذهب إلى وصف سكان المنطقة المعروفين باسم الرواغة (Les Rouâgha)، فقال أنهم « يتميزون ببنيتهم البدنية وخاصة ببشرتهم، وهي قريبة جدًا من النوع الزنجي. وبعضهم أكثر سوادًا من شعب الهوسا الشمالي مثل مادجا(Madja)، وما إلى ذلك. النساء يرتدين اللون الأزرق. ولا يضعن شيئًا على رؤوسهن سوى ملابسهم أو حايكًا ... يبدو لي أن النساء يتمتعن بالحرية التي يحق لهن التمتع بها » [24].

2-3- رحلته إلى وادي سوف:

وفي يوم 4 فيفري انطلق إلى وادي سوف، فاتجه نحو وادي الخروف (l'Oued-el-Khorouf)، ثم توقف عند عين الدويرة (Ain ed Daouira)، وهي بركة دائرية صغيرة تشغلها القصب والنباتات المائية الأخرى. حيث قام بتخزين المياه العذبة، وعبر وادي الخروف [25]. ثم اقترب من شط ملغيغ، وبعده مر على خطوط الكثبان الرملية إلى أن وصل إلى قمة كثبان في سيف بو دلال (Sif bou Delal) ، ثم بلغ كثبان القصابية. وفي هذه العزلة لاحظ دوفيرييه آثار أقدام الغزلان والأرانب البرية والجربوع والجرد. كما ذكر أن هذه المنطقة الرملية تحتوي على بعض النباتات من أهمها أليندا (àlenda) و درين (drin)، و أرتا (arta) ودومران(dhomran) و الحرمل(harmel). وتعرضت القافلة إلى هبوب الرياح بشكل عنيف، فجرفت الرمال وزادت من صعوبة الرحلة في هذا المنطقة المهجورة[26]. وعلى الرغم من الإرهاق الشديد، واصل سيره إلى الكثبان الرملية الأولى في Medjigger، التي تتميز بأنها أكثر ارتفاعا، والتي تحتوي على الآبار التي تحمل نفس الإسم [27].

وفي 7 فيفري وصل إلى ضواحي وادي سوي ومنها مدينة قمار(Guemâr)، فبدأ بوصف حالة الزراعة في هذه المدينة قائلا:« أن نخيل قمار منتشرة في كتل صغيرة في فجوات

الكثبان الرملية. ... يتم بناء العديد من الآبار المائلة (باللغة العربية خالتارا en arabe Khaltâra) بالقرب من أشجار النخيل لتسهيل الري. في فصل الصيف يتم سقيها مرتين في اليوم صباحًا ومساءً. وفي الشتاء، أعتقد أن السقي يتم لمرة واحدة فقط. حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، يغادر العمال وسط ضجيج كبير ويتوجهون إلى أشجار النخيل للعمل على إزالة الرمال من حول الجذوع، لأن الرمال تتعدى باستمرار حدود المزارع. ويختارون القيام بذلك ليلا، حتى في فصل الشتاء، لتجنب حرارة النهار. ورغم هذه العناية؛ إلا أن الرمال تدفن العديد من أشجار النخيل التي يمكن رؤية جذوعها العارية والميتة» [28].

وعندما اقترب من قمار، ودخل سهلًا مستويًا بلا رمال قال: « أصبحت الآبار أكثر تواترا. لاحظنا وجود حدائق صغيرة مربعة الشكل محاطة بسياج من أغصان النخيل، وتحتوي جميعها تقريبًا على بئر مائلة، لقد رأينا بشكل رئيسي محاصيل التبغ هناك» [29].

وعندما دخل إلى مدينة غمار استقبله بعض شيوخها ومنهم القاضي الذي وصفه بأنه:« رجل مثقف ومتحضر، أعطاني معلومات تاريخية جيدة، ووعدني بأن يعطيني نسخة من كتاب للشيخ العدواني، وسيرسله لي في بسكرة».ونزل في بيت أحد الشيوخ اسمه عبد القادر، في السبعين من عمره[30].

ووضع دوفيريي وصفا لعمران المدينة فقال: « هي مدينة يبلغ عدد سكانها حوالي 4000 نسمة. يبلغ ارتفاع المنازل تقريبًا ارتفاع الإنسان وهي ذات مظهر هزيل. لكن يجب أن تكون صلبة، مبنية من الحجارة والجير. الأسطح التي تعلوها قباب صغيرة لها تأثير أصلي. جدران المنازل ليست مجصصة أو مستوية، ولكن كل شيء يبدو أبيض. هناك عدد قليل جدًا من المنازل معًا. يوجد في المدينة سوق صغير وعدد قليل من المحلات التجارية والعديد من المساجد، بما في ذلك الزاوية التي تعتبر أجمل المعالم الأثرية في قمار». ثم وضع وصفا لسكانها فقال:« أعتقد أن سكان قمار هم عرق مسالم ومجتهد. ويغطون رؤوسهم بحايك بسيط أو بعمامة بيضاء صغيرة. حبال شعر الجمل ليست عادية. وللنساء نوع

منفصل ليس من العرب الرحل ولا من نساء وادي ريغ. بدا لي أن الرجال لديهم ملامح تشبه بني ميزاب، وهذا ما تفسره المعطيات التاريخية التي سأقدمها»[31]. أما عن قبائل قمار فهي: أولاد بوعافي، أولاد عبد القادر، أولاد عبد الصادق مع قبيلة أولاد موسى الصغيرة، إخوانهم أولاد هويمن(Ouled-Hôwimen). هذه القبائل الأربع لكل منها زعيمها[32]. أما أولاد حميد هم أول العرب الذين استقروا في واد سوف، وكانوا من قريش، وخرجوا من سوريا في زمن سيدنا عثمان بن عفان [33].

أما العرب الذين يطلق عليهم "الطرود" (Toroud)[34] جاءوا واستقروا في وادي سوف. قال ابن خلدون « ومن بني فهم بن عمرو فيما ذكر البيهقي بنو طرود بن سعد بن فهم بطن متسع كانوا بأرض نجد، وكان منهم الأعشى (الشاعر الجاهلي المشهور)، وليس منهم الآن بها أحد، وبإفريقية – يقصد تونس وشرق الجزائر – لهذا العهد حي يظعنون مع سليم ورياح، وانقضى الكلام في بني عمروبن قيس» .

وذكر دوفيريي أن أول سكان سوف كان العبادية (Abadiâ). وكان لدى زناتة مدينة هناك، وهي أميتش(Amich). وقبل مغادرته لمدينة غمار أخذ خريطة تقريبية للمدينة، ثم وصل سريعا إلى بلدة ترهزوت(Tarhzout)، وهي أصغر بكثير. ثم توجه إلى كوينين(Kouinin) فذكر أنها تكون بطول ترهزوت أو أكبر قليلاً. ولاحظ وهو في الطريق بين غمار والوادي، وجود كتل من أشجار النخيل المنتشرة في الفجوات بين الكثبان الرملية، ووجود عدد لا بأس به من الآبار وعدد قليل من قطع الأراضي الزراعية[35]. وذكر الرحالة أن شيخ وادي سوف الذي كان يلقب بـ"الخليفة" قد لقيه ما بين كوينين والوادي وأضاف: «كان ومعه ثلاثة فرسان،امتطيت أحد خيوله، وهو مرح بعض الشيء، وسرعان ما وصلنا إلى الوادي» [36] ، كان ذلك يوم 8 فيفري.

قضى يومي 9 و 10 فيفري في وادي سوف، وذكر بعض الأوصاف للمدينة، فبدأ بذكر عدد سكانها حوالي 6000 نسمة. وعن نظام عمرانها قال:« هي ذات بناء مئذنة

عالية وبرج للخليفة. تتكون المنازل في معظمها من فناء نصبت فيه خيمة، ويحتوي أيضًا على كوخ أو سقيفة مصنوعة من سعف النخيل. تعيش عائلة أولاد حامد في حي منفصل قليلاً، شرق برج خليفة. إلى جانب سكان المدينة، لا يزال الوادي يضم عددًا صغيرًا من خيم بدو الحرازلية(Harazlia) والنوايل (Nouail) [37]». وخصص وصفا لبرج الخليفة فقال: « تم بناء برج الخليفة حسب تصميم الكابتن لانجلوا(Langlois). وهو مربع محمي من الشرق والغرب (من زاويتين فقط) بحصن مربع، يضم أحدهما السجن، وهو من أجمل بيت في المدينة» [38]. وتحدث عن الملابس فقال هي نفسها كما في بقية سوف. أما عن الزنزج فذكر أمن نادرا ما يرى الزنوج بعضهم البعض. أما عن اليهود فقال أن عددهم سبعة وأربعون، موزعين على أحد عشر بيتاً.إنهم يصنعون اليانسون جيدًا(anisette)[39] .

وحسب دوفيريي أن وادي سوف منفتحة على محيطها من المناطق المجاورة فقال:« هناك اتصالات متكررة هنا مع البلدان الأجنبية، غدامس، نفزاوة والجريد، وتونس نفسها. ويوجد أيضًا بعض التجار من غدامس والعديد من التجار من الجريد» [40].

وتحدث نظام الأسعار لبعض المواد في وادي سوف. أما السلع القطنية الإنجليزية التي تحمل اسم جون روز(John Rose) والتي تأتي من تونس فتباع بـ 15 فرنكا. للقطعة ذات 75 ذراع[41] (41). يباع مسك مكة القادم من الهند على الأقل بـ 1 فرنك. للوزنة[42]، عادة ما يكون سعره أكثر. اشترى حايك جيريدي مقابل 47 فرنكًا ونصف. ولاحظ أن الدجاج رخيص، فقد اشترى سبعة دجاجات بسعر 1 فرنك، كما حصل على 18 بيضة مقابل 50 سنتا. وقبل مغادرته وادي يوم 11 فيفري ذكر أن الخليفة لا يريد أن يسمح له بالرحيل دون أن يعطيه برتقالاً من تونس وبيضة نعامة[43].

2- 4- رحلته إلى مدينة ورقلة:

في طريقه إلى مدينة ورقلة مر عبر عدة مناطق: فقال: « بعد مغادرة الوادي، سلكنا طريق تيماسين(Temassin) حتى وصلنا إلى البئر الواقعة في منخفض الحوض التونسي.

الكثبان الرملية التي يتعين علينا عبورها، هي أعلى الكثبان الرملية التي رأيتها في هذا الجزء من الصحراء، خالية من النباتات». ثم واصل الحديث فقال: « عبرنا سلسلة من المناطق ذات الكثبان المنخفضة والوديان». أما عن الغطاء النباتي فذكر بعضا منها هي: العزال(ezal)، المرخ(markh)، العربية(arabia)، واللبين(le lebin) [44].

وفي الطريق التقى برجلين من الطوارق عند أحد الآبار كانا في طريقهما إلى وادي سوف لشراء الحبوب، وأخبروه عن التوتر السائد بين قبيلتي أولاد عمار والشعانبة فقال:« أخبرونا أنه بالأمس أو أول أمس، تشاجر أولاد عمار (وادي ريغ) مع الشعانبة في ورقلة، بسبب جمالهم. قُتل أحد أفراد قبيلة الشعانبة، وهو رجل بارز. القبيلتان على وشك مهاجمة بعضهما البعض». ثم تحدث عن رؤيته لآثار حيوان مفترس صغير يسميه مرشدوه سيفتشي (sefchi)، والذي يصورونه باللونين الأبيض والأسود. وفي إحدى المناطق وهو في الطريق لاحظ الغطاء النباتي، والذي يتكون من الباجيل(bageul)، والدمران(dhomràn)، والزيتا(zeita)، والدرين(drin)، والسفار(sefâr)[45]. ولما وصل إلى وادي سيده(Oued-Sidah)، الذي يقع في منطقة بسيطة خالية من الرمال، ليس له انحدار منتظم [46]. وبعد ذلك التقى بمسافرين قادمين من ورقلة ومعهما جملان، وأخبراه أن المدينة تقع على بعد أقل مما كان يتصور، وقالا له أنه سيصل إليها بسهولة غدًا[47].

وخلال مواصلته السير دخل إلى حوض محاط بالمرتفعات من كل جانب، وبعد عبوره توقف لتناول الغداء في مكان يدعى البنيب(El-Benib). وكما ذكر من هنا تبدأ أرض الحمادة، التي تتميز بطبيعة نباتاتها النادرة والمتقزمة، والتي تقتصر على بضعة خصل صغيرة من الباغيل(bâguel) والسفار(sefâr)، وتربتها ناعمة رغم أنها رملية جزئيًا. ثم تابع السير على مسافة معينة، ذات نطاقات المرتفعات التي كانت على اليسار وتوقف في مكان على شكل سهل يسمى صحن الرمادة.(Sahan-er-Remâda). واصل طريقه على الحمادة، ثم دخل إلى منطقة مسطحة ذات تربة صلبة ونباتات الباغيل الهزيلة. وبعد

سيره لفترة طويلة في هذه المنطقة، انتهى في نهاية اليوم، برؤية سلسلة من الكثبان العالية التي اضطر إلى الالتفاف حولها، وبعد عبوره في مكان سهل، وجد على اليمين واحة صغيرة من أشجار النخيل، وهنا دخل إلى حوض ورقلة[48].

واصل سيره لمسافة طويلة في منطقة خالية من النباتات، ثم وصل إلى نخيل عين البيضاء(Ain Beidha) حيث مشى من خلالها لبعض الوقت، وكانت على يمينه واحة عجاجة (Ajâja) الطويلة. ثم قطع السبخة التي تحيط بورقلة، وانعطف على طول أشجار النخيل بالمدينة، وأخيرا دخل إلى مدينة ورقلة عبر باب السلطان عند غروب الشمس مع نداء المؤذنون لصلاة المغرب [49] .

وقد استبطأ دوفيريي قدوم قادة المدينة لاستقباله حيث قال: « لقد استغرقوا وقتًا طويلاً للقدوم لمقابلتي، وقرأت توبيخًا خطيرًا لقادة المدينة، الذين كانت علاقاتي بهم باردة جدًا خلال الإقامة القصيرة التي أمضيتها في ورقلة». أما عن إقامته فذكر أنه حصل على منزل في شارع تابع للميزابيين، وهو مبنى كبير، صالحًا للسكن للغاية ومناسب تمامًا لاحتياجات عائلة كبيرة من السكان الأصليين، كان ذلك يوم 17 فيفري 1860[50].

وخلال إقامته في مدينة ورقلة زار العديد من معالمها، فكما ذكر بدأ بزيارة السوق وقال: « كانت إدارته سيئة للغاية؛ ولم يكن به سوى القليل من اللحوم والحبوب للبيع، وكان البائعون هم الشعانبة وأشخاص من الوادي». ثم اتجه نحو القصبة، ذات المساحة الكبيرة التي تشغلها آثار قلعة السلاطين القديمة. وقد بدت له القصبة وكأنها بلدة صغيرة منفصلة؛ وكان لها باب لا يزال قائما مثل أبواب المدينة. وكان توزيع الشقق ضيقاً للغاية، وبأعداد كبيرة منها، لكنها غير صالح للسكن.

أما عن عمران المدينة فذكر أن « شوارع ورقلة ضيقة، تصطف على جانبيها منازل عالية مثل تلك الموجودة في واد مزاب، بأبواب تعلوها وتحيط بها تصاميم بدائية، مزينة أحيانا ببيضة نعامة. أخيرًا نقرأ نقوشًا صغيرة بأحرف ليست أنيقة جدًا، مثل "لا إله إلا الله" أو

"نصر من الله". تحتوي المدينة على العديد من الممرات المقببة، والتي توفر أماكن ممتعة للراحة أثناء حرارة النهار في الصيف». ثم تحدث عن وجود مسجدين قريبين من بعضهما البعض [51].

وعن التركيبة البشرية للمدينة قال أن المدينة تتقاسمها ثلاثة قبائل وهي بني سيسين(Béni Sisin) وبني إبراهيم(Béni Brahim) وبني واجين(Béni Ouaggin). إلى جانب ذلك تعيش مجموعة كبيرة من بني ميزاب بدائرة بني سيسين. هذا المجمع السكاني ذا أهمية تاريخية كبيرة [52]. وأضاف أن « سكان ورقلة ملونون أكثر من أسمر؛ أما الخماميس أو المزارعون فهم سود مثل زنوج الهوسا؛ أحيانًا يكون أصحاب الدماء النبيلة أكثر بياضًا، ولكن ليس دائمًا، لأنني رأيت بعضًا منهم يشبهون الزنوج تقريبًا. يتفق بني ورقلة أنفسهم على أن لونهم يأتي من العديد من النساء السود الذين أخذوهم في الماضي وما زالوا يأخذونهم الآن. وكانت مدينة ورقلة حسب ما قيل له أن القوافل تأتيها من الغات(Rhât) والغليعة (Goléâ) وعين صالح (Insâlah) [53].

وفي آخر يوم من وجوده بالمدينة ذكر أن سي زبير بو بكر، الأخ الأصغر لسي حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ سيد المنطقة[54]، كان قد فرض ضرائب غير عادية والعُشْرْ على كل منتوجات البلاد. وأكد أن هذه المساهمات المختلفة كانت لحسابه الخاص، وهذا ما تسبب هجرة عدة عائلات من ورقلة إلى تونس[55].

2– 5– رحلته إلى توغرت:

غادر دوفيريي مدينة ورقلة في وقت متأخر من صباح يوم 19 فيفير1860، وبعد عبوره السبخة، التي كانت أصغر حجمًا وأقل تصميمًا، ثم اتجه عبر سهل غير مستوٍ قليلاً، به نباتات زيلا(zeila)، وسلك على مسافة ما بين 4 أو 6 كيلومترات، درعا كبيرا الذي يؤدي إلى النقوسة(Negousa). وخلال عبوره أصبحت الأرض مستوية وتوقف الغطاء النباتي بالكامل تقريبًا. وعند وصوله إلى النقوسة، أعلمه القائد، ابن آخر سلطان والسلطان

نفسه، أن سجلات المدينة قد تم أخذها أثناء تدمير المدينة قبل خمس سنوات على يد محمد بن عبد الله. وقام بجولة في البلدة التي تحيطها بها الآثار. وتحتوي على أطلال لمسجد، لا يزال جزء كامل منه، بأعمدة عالية قائمًا. وعَبَرَ عددًا كبيرًا من الشوارع، كلها تقريبًا مدعومة بدعائم. وذكر أن قصبة المدينة كانت تجري بها عملية تحصيص الجدران. وتحتوي على عدة منازل يستخدمها القائد. وعلى كل فهي مصانة جيدًا ومناسبة لحجم المدينة[56].

ورأى من بعيد زاوية ذات مئذنة وقبة مطلية باللون الأبيض. وفي المساء،عزفت الموسيقى، التدرب على نوتتين على آلة الطبل لمدة ساعتين على الأقل.[57] وقد وجد شعانبيا الذي يعرف الصحراء بين ورقلة وعين صالح، والذي عرض عليه أن يأخذه إلى عين صالح مقابل 50 إلى 60 دورو(douros). مر على باطن (Baten) في هضبة تادمايت (Tademaït)، ومن هناك، ذكر أنه بواسطة منظاره تمكن من رؤية زاوية مولاي هيبة (Heïba Moulaï)، أول قرية في تيديكلت (Tidikelt)، التي لا تبعد سوى يومين[58].

لقد حظي بزيارة القائد، وسلم له الحليب والتمر ودجاجتين مرة أخرى. ثم غادر النقوسة، فشق طريقه عبر مساحة واسعة من الأرض الرملية فيها أشجار النخيل المعزولة والمزارع الصغيرة. ودخل بعد ذلك منطقة نبات الهيشة (heicha) أو خشب الأجمات الصغيرة (petit bois taillis)، ذات التربة الصلبة الرملية قليلاً، إلى السبخة[59]. صادف مستعمرة غير متوقعة من فلامينغو وردي أو المستنقعات المالحة الجافة، حيث تنبت شجيرات معزولة، وأهم النباتات السائدة هي: الزيتة (la zeita)، والضمران (dhomrân)، والطرفة(tarfa)، والبلبال(belbàl) [60].

وصل بعد الظهر إلى بئر العريفجي(Araïfdji)، حيث خيم أمام منطقة الكثبان الرملية التي تحمل نفس اسم البئر [61]. وصل إلى توغورت حوالي الساعة التاسعة صباحًا من يوم 23 فيفري[62]. قابله السيد غيليموت(Guillemot)، وقدمه إلى الكابتن

كانات(Canat)، وتلقى رسالة من أستاذه وصديقه الدكتور فلايشر(Dr Fleischer) الذي طلب منه رسميًا مقارنة اللهجات البربرية المختلفة باللغات المصرية.

وتلقى من السيد دي دلماس(M. de Dalmas)، رئيس ديوان الإمبراطور، رسائل توصية من باي تونس لمختلف القادة والأغوات في حكومته. وسعى دوفيرييه أن يلتقي بالكابتن لانجلوا(Langlois) إلى بسكرة، فقد قرر القيام برحلة مدتها عشرين يومًا إلى جنوب تونس. وصلته أمتعته، ونصبت خيمته على باب القصبة[63].

لقد أمضى فترة ما بعد الظهر، هو والسيد أوير(M. Auer)، وهو ملازم في الفيلق، في رحلة صيد في شيمورا(Chemorra)[64] لاقتناء البط البربري، ولاحظ وجود قطط لا تخاف الماء في الحدائق ليلاً، وتبحث عن طعامها في المزارع. وفي الخريف، في أحواض البطيخ(melons) والبطيخ(pastèques).[65]. ولاحظ وجود حيوانات المستنقعات الأخرى هي طيور النحام(flamant) من نوعين، كما أخبرني السيد أوير؛ سنابس(bécassines)،البط البري (sarcelles)، القبرات (alouettes)، مالك الحزين(hérons)، الذعرات(bergeronnettes)، وأخيرًا طائر صغير جدًا ذو لسان طويل بشكل مذهل. كما لاحظ وجود أسماك في الخنادق وفي الطحالب المائية والبعوض. ثم قال « عدت مغطيًا بعضاتهم على جبهتي وعيني وخدي ويدي وحتى ساقي. تم علاج كل شيء بالماء المهدئ»[66].

يتكون الغطاء النباتي للأرض من الطرفاء، ولكن بأعداد صغيرة، وكمية من النباتات من جنس الخبز(baguel) والبلبال(belbâl)،ولكنها أكبر بكثير، فهي نباتات عصارية مفصلية. كما أن هناك كميات كبيرة من الاندفاعات(joncs) تصل إلى الركبتين وتنتهي في نقطة تؤذي الساقين عند المشي ويحتوي الماء على عدد كبير إلى حد ما من الطحالب المائية والكونرفاي(conferves). وذكر أن هناك نوع من الحمى تنسب إلى توغرت، فهي تحدث مرتين في السنة وتستمر كل مرة لمدة شهر؛ تنتشر خلال شهري مايو وأكتوبر.

وخلال ذلك تكتسب الخنادق المحيطة بالمدينة وجميع مياه الواحات الراكدة لونًا شوكولاتة يقترب حتى من لون الدم[67]. وخلال مدة ثلاثة أشهر قضاها رجال الفيلق والمهندسون في توغورت، ظلت الصحة جيدة؛ لم يكن هناك سوى عدد قليل من حالات الإسهال التي كان من السهل علاجها. وترجع هذه الإسهالات أيضًا إلى مياه البلاد[68].

وتحدث عن مرض غريب يصيب الزنوج. أن بعضهم يتعرض لأيام جنون أو نكد، يقوم فيها بتصرفات غريبة تسمى هذه الحالة "مولا راس" في الهوسا، "بوري أو بولي" ومرة أخرى "إبليس"(ébelis)[69]. وقضى صباح يوم (29 ماي 1860) في توغورت وتناول الغداء مرة أخرى مع أوير والشركة، واتخذ الاحتياطات اللازمة للمغادرة في اليوم الموالى.أتى القائد على ظهر حصان وقت المغادرة ورافقه إلى باب المدينة ليودعه، وقدم توصيات واسعة بشأنه[70].

وفي الطريق كان على يمينه اثنتين من القرى المحيطة بتوقرت، ومر بين غابات النخيل، وعبر مستنقعات شمورة(Chemorra) .وبعد فترة وجيزة، دخل منطقة ذات كثبان منخفضة، مما أدى به إلى "وادي" أو سهل مستوي إلى حد ما يسمى وادي السديري(Oued-es-Sédiri). وكان هذا السهل شاسعًا جدًا. ولاحظ النبات التي تغطي الأماكن الجافة من شيمورا تسمى رودهدام(rhodhdham)؛ تزهر في الربيع. وفي أول من الشهر مارس شق طريقه نحو الجريد في الجنوب التونسي عبر وادي سوف، فزار قابس وقبيلي(Kebilli) ونفزاوة(Nefzaoua)، ثم اتجه شمالا إلى قفصة وتوزر[71].

3- رحلته إلى منطقة الطوارق:

لم تكن هذه الرحلات بالنسبة لدوفيري سوى تمهيدية للاستكشاف الكبير الذي خطط القيام به في الصحراء الوسطى، إعدادًا وتدريبًا؛ لقد استكمل معرفته التقنية وخبرته مع السكان. ولفت انتباه الجنرال دي مارتيمبري(Martimprey) إليه، الذي حصل

له على مهمة رسمية بين طوارق أزدجر(Azdjer)، وكان معه لاستكمال مهمة بوضربة(Bou Derba)، بناء علاقات ودية معهم[72].

وكانت هذه الرحلات قد لفتت انتباه الحكومة العامة للجزائر إلى هذا الشاب، وهو الذي كان مسؤولا عن إتمام مهمة بوضربة وتجديد العلاقات الودية مع الطوارق أزجر، بهدف إعادة فتح الطرق لقوافل إلى السودان. ولدى عودته إلى بسكرة في 10 أبريل 1860، وجد دوفيري أخبارا سعيدة في انتظاره، حيث تم تكليفه بمهمة رسمية لدى طوارق أزجر [73].

وتلقى تعليمات وإعانات من الحكومة (الفرنسية) للقيام باستكشاف بلاد الطوارق. وصل إلى غدامس عن طريق وادي سوف وعبر العرق، وذهب إلى طرابلس لتأمين دعم حاكم طرابلس التركي [74]. جميع الرحلات التي قام بها دوفيرييه اعتبرت مجرد تمهيدات للرحلة العظيمة التي خطط القيام بها في الصحراء الوسطى، وكانت بطريقة ما إعدادًا وتدريبًا وأيضًا توقعًا قسريًا لظروف مواتية. ولذلك تلقى دوفيرييه في بسكرة، في جوان 1860، الإعانات التي احتاجها لاستكشاف بلاد الطوارق الشرقية [75].

وصل دوفيرييه أولاً إلى وادي سوف عبر طريق القوافل العادية، وفي هذه المدينة، استعد للتوجه أولاً إلى غدامس، هدفه الأول. ورافقه الشيخ عثمان وعدد قليل من الطوارق كمرافقين له. وقد حظي دوفرييه بالعناية والدعم من قبل الشيخ عثمان. وذلك بعدما كان دوفيري قد سأله أن يكون في حمايته وكذلك حماية أخوه الحاج أحمد، زعيم الهقار، ما يمكنه من زيارة الهقار بنفس الأمان الذي يتمتع به لدى آل أزدجر؛ فأجاب:«أي فرنسي يريد استكشاف الهقار سيتم استقباله بشكل جيد، إذا التزم بالعادات» .[76] وهكذا فقد مد الشيخ عثمان يد العون إلى دوفرييه وزوده بالمعلومات المتعلقة بحياة الطوارق. وفي سنة 1862 استدعته السلطات الفرنسية لزيارة باريس، وحظي بمقابلة الإمبراطور نابليون الثالث جزاء للخدمة التي قدمها لها في الصحراء[77].

دخل دوفرييه إلى غدامس يوم 11 أوت 1860 بعد رحلة دامت ستة أيام. حيث جاء إخنوخن(Ikhenoukhen) للانضمام إليه وكتب دوفيري من هذه المدينة في 14 أغسطس: «لقد تعلمت الكثير من رفيقي الشيخ عثمان ورجاله الطوارق، ولم يسعني إلا الإعجاب بهؤلاء الفرسان المعاصرين الذين يمتطون جمالًا خفيفة الانقياد ويمشون في صمت بلا حراك السروج، مثل الأشباح" [78]. وقد تم اعتقاله لبعض الوقت في هذه المدينة بسبب مضايقات السلطات التركية، ولم ينتصر إلا بالذهاب بنفسه إلى طرابلس، حيث عاد بتوصيات قوية من الباشا والقنصل الفرنسي في طرابلس بول إيميل بوتا(Paul-Émile Botta) [79].

غادر دوفرييه إلى غات (Rhat) مع الأمير إيخنوخن، أمير الطوارق أزجر . عبر الطريق الذي يمر عبر أوهانت(Ohanet)، وادي تيخامالت(Oued Tikhammalt) وسفح طاسيلي دي آجرز إلى الغات، حيث وصل دوفيرييه في مارس 1861. وأقام فيها لمدة خمسة عشر يوما. ثم غادر غات مع الشيخ عثمان وإيخنوخن واتجه إلى مرزوق(Mourzouk). وبعدما وصل إلى زويلة (Zouila)، عاد من مرزوق إلى طرابلس عبر الطريق الطويل المؤدي إلى سوكنة(Sokna) [80].

لقد خلد دوفيرييه رحلته إلى منطقة الطوارق في كتاب عنوانه**"طوارق الشمال"** الذي يتشكل من أربعة أقسام: الأول مخصص للجغرافيا الطبيعية والجيولوجيا وعلم المعادن؛ والثاني، الإنتاج المعدني والنباتي والحيواني؛ والثالث، إلى مراكز النفوذ التجارية والدينية؛ أما الرابع فيتناول طوارق الشمال وأصولهم وانقسامهم إلى قبائل ودستورهم الاجتماعي وتاريخ القبائل وشخصياتهم المميزة وحياتهم الداخلية والخارجية[81]. وقد لعب الدكتور أوغوست فارنيي (Auguste Warnier)دورا الذي معالجة دوفيرييه، وفي تجميع هذا المجلد "طوارق الشمال"، كما تم نقش الخريطة التي بينت المنطقة التي زارها دوفيرييه[82].

وحسب دفيرييه تنقسم منطقة الهقار إلى أربعة تقسيمات سياسية رئيسية تتوافق مع أربعة تقسيمات إقليمية رئيسية، وهي:

1- اتحاد أزدجر(Azdjer) أو كل أزدجر(Kêl-Azdjer) في الشمال الشرقي وتكون هضبة طاسيلي في الشمال وتوابعها موطناً لها.

2- اتحاد الأهغار(Ahaggar) أو كل الأهجار(Kêl-Ahaggar). وفي الشمال الغربي في جبل الهقار .

3- اتحاد آير(Aïr) أو كيل آير(Kêl-Aïr)، والمعروف عمومًا باسم كيل-أوي(Kêl-Ouï)، في الجنوب الشرقي، في كتلة آير(Aïr) الصخرية، والتي تسمى أيضًا أزبين(Azben).

4- اتحاد أويلميدن(Aouélimmiden) بالجنوب الغربي، وتضم إقليمها قسما جبليا هو أدغاغ (Adghagh) وجزءا منبسطا أهاواغ(Ahâouagh)[83].

عاد دوفيرييه على الفور إلى الجزائر العاصمة، بعد رحلة طويلة دامت قرابة ثلاث سنوات. لكن مرضًا رهيبًا، حمى التيفوئيد، التي تفاقمت بسبب حوادث مدمرة، هزت صحته وحتى ذاكرته بشدة لدرجة أنه لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى الملاحظات التي كتبها سابقًا[84].

بعد مغادرة إيخنوخن(Ikhenoûkhen) في مرزوق(Mourzouk)، وصل دوفيري إلى طرابلس في 2 سبتمبر 1861. وأعادته باخرة إلى الجزائر العاصمة في نوفمبر. وفي 5 ديسمبر، أُجبر على النوم لعدة أسابيع. تضررت قدراته بشكل خطير وفقد ذاكرته لبعض الوقت. من الصعب اليوم معرفة ما هو مرضه. وعلى أحد الدفاتر التي استخدمها أثناء رحلته، وبعضها بعد عودته، كتب هذه الكلمات القليلة، ربما في عام 1862:« مرضي في الجزائر العاصمة وسان يوجين .وعندما وصلت إلى الجزائر العاصمة

قضيت 3 أسابيع على ما يرام. في حوالي 9 أو 12 ديسمبر مرضت . في حوالي 9 أو 12 يناير استيقظت. وصل والدي في نهاية ديسمبر. ويغادر في نهاية يناير»[85] .

في عام 1863، حصل دوفيرييه على الميدالية الذهبية الكبرى من Société de Géographie. لقد قام هذا الشاب الجريء، الموهوب بصفات نادرة، بواحدة من أجمل وأثمر الاستكشافات الأفريقية. لا يزال عمله عن الطوارق الشمالية، حتى اليوم، كتابًا أساسيًا عن جميع المسائل المتعلقة بالأزدجر(Azjers) والهقار. فكان دوفيرييه أول من قدم معلومات دقيقة ومفصلة عن هذه المنطقه، لأن بارث(Barth) الذي لم يكاد يمس الجزء الشرقي من الهقار، لم يقدم سوى بعض المعلومات. ومن ثم فإن عمل دوفيرييه بشأن الطوارق الشماليين كان مكملاً لعمل بارث بشأن الطوارق الجنوبيين[86]. ومن وجهة نظر الاستكشاف، قدمت أعمال استكشاف دوفيرييه الجميل الهامة، الذي عرّف ببلاد الطوارق الهقار من خلال المعلومات، وطاسيلي الأزجر، والطرق من غدامس وغات إلى سوف وطرابلس. تعتبر خريطة دوفيرييه وثيقة بيانية هامة للصحراء الوسطى[87].

الخاتمة:

إن ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة نذكره فيما يلي:

1- في إطار اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية والجزائرية منها على الخصوص، سبق رحالون فرنسيون آخرون هنري دوفيريي، ويعود ذلك إلى ما قبل احتلالهم للجزائر سنة 1830، بداية من رحلة فردريك كايو (Frederic Cailliaud) خلال سنوات (1818-1822)، ورحلة روني كايي (René Caillié) خلال سنوات 1824-1828، الذي كان عازما على الدخول إلى تمبوكتو.

2- كانت فرنسا تهدف من هذه الرحلات في الصحراء بما فيها رحلات دوفيرييه الاستفادة من العمق الصحرواي للجزائر، فقد ودت هذه الدولة الاستعمارية إلى ربط مستعمراتها في

القارة الإفريقية بالجزائر، من خلال اكتشاف طرق المواصلات وتأمينها لدى سكان المناطق الصحراوية.

3– يمكن أن نقسم رحلات دوفيرييه إلى ثلاثة مراحل: الأولى التي قام سنة 1857 حين دعاه صديق والده الدكتور أوغست فارنيي القاطن قرية القندوري على بعد 30 كلم غرب مدينة الجزائر، ومنها انطلق إلى الجلفة والأغواط صحبة الجغرافي أوسكار ماك كارتي. الثانية كانت بدايتها سنة 1859 حين حل بمدينة سكيكدة ومنها إلى قسنطينة ثم إلى بسكرة ووادي ريغ، وادي سوف، ورقلة وتوغرت، وإلى الجنوب التونسي. أما المرحلة الثالثة فتلك التي قام سنة 1860 إلى الهقار ، التي انطلق إليها من وادي سوف ثم غدامس ثم إلى غات.

4– لقد خلف دوفيرييه أعمال رحلاته منها مقال في مجلة ألمانية "ملاحظات عن أربعة قبائل بربرية، تم جمعها خلال رحلة في الجزائر إلى بحيرة حلولة وإلى الأغواط في فبراير ومارس وأبريل 1857" وأشهر كتبه **هو**"طوارق الشمال" الصادر سنة 1864. وتجدر الإشار إلى أن دوفيرييه لم يحاول التخفي في زي إسلامي، ولم يخف أنه مسيحي، مثلما فعل ذلك العديد من الرحالة الذين سبقوه، بل تنقل بثيابه الأوروبية على أنه مسيحي.

الهوامش:

(1) Françoise Aujogue , Papiers d'Henri Duveyrier (1840-1892) et de Charles Maunoir (1830-1901) 47 AP 1-25, Centre Historique des Archives Nationales, Paris, 2004, Pp .3-4.
(2) Ch. Maunoir et H. Schirmer, Journal de route de Henri Duveyrier, Augustin Challamel, Éditeur, Paris, 1905, p.XIII.
(3) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.XIII.
(4) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.XV.
(5) Françoise Aujogue, p.4
(6) اسمه الكامل أوسكار لويس ألفريد ماك كارثي (Oscar Louis Alfred Mac Carthy) وهو جغرافي ومستكشف فرنسي من أصل أيرلندي ولد باريس، 1815– وتوفي في مدينة الجزائر 23 ديسمبر 1894.

(7) H. Duveyrier, Notizen über vier berberische Volkerschaften, während einer Reise in Algérien nach Hallûla-See und nach Laguàt in Februar, Marz und April 1857,gesammelt, Zeitschrift der deutscken morgenländischen Gesellschaft, t. XII, 1858, p. 176-186.

(8) هاينريش بارث من مواليد 16 فبراير 1821، في هامبورغ بألمانيا كان جغرافيًا ألمانيًا وأحد المستكشفين العظماء لأفريقيا. تلقى بارث تعليمه في في جامعة برلين، وكان لغويًا كفؤًا يجيد الفرنسية والإسبانية والإيطالية والإنجليزية والعربية. سافر إلى المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط والتي أصبحت الآن جزءًا من تونس وليبيا (1845–1847) ونشر ملاحظاته في عام 1849. عنوانها "المشي لمسافات طويلة عبر السواحل البونيقية والقورينية"، أو المغرب وإفريقيا وبرقة(Wanderungen Durch Das Punische Und Kyrenäische Küstenlan Oder Mâg'reb, Afrikîa Und Barká) ، توفي في 25 نوفمبر 1865، في برلين.

(9) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة ، 1993، صص. 264.

(10) نفسه ، صص. 264–265.

(11) Henri Duveyrier, Les Touareg du nord, Challamel Ainé . Libraire – Éditeur, Paris, 1864,Introduction, p.I.

(12) Henri Duveyrier , Les Touareg du nord, Challame Challamel AINÉ . Libraire - Éditeur ,Paris,1864,Introduction, pp.XVIII-XIX.

(13) P. Vuillot, L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, pp.61-63.

(14) P. Vuillot, p.65.

(15) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.3.

(16) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.4.

(17) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.4.

(18) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.5.

(19) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.6.

(20) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.7.

(21) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.8.

(22) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.8-9.

(23) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 9.

(24) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 9.

(25) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 9-10.

(26) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 10-11.

(27) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.12.
(28) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.12-13.
(29) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 13.
(30) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 13-14.
(31) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 14.
(32) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 14.
(33) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15.

(34) بنو طرود وهم: بنو طرود بن فهم،: أعشى طرود الشاعر، قال في العبر: وهو بطن متسع ، وكانوا بأرض نجد وليس منهم الآن أحد. قال: وبإفريقية من بلاد المغرب منهم الآن حي عظيم ينزلون ويظعنون مع سليم ورياح، العبر 2، 205) أبوالعباس أحمد بن علي القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب زمان، تحقيق ابراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، دار الكتاب المصري، القاهرة ، 1982، ص.112.

(35) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15.
(36) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15.
(37) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15-16.
(38) Ch. Maunoir et H. Schirmer,p.16.

(39) هو مشروب اليانسون الكحولي الذي يتم استهلاكه في معظم دول البحر الأبيض المتوسط. وهو عديم اللون، ولأنه يحتوي على السكر فهو أحلى.

(40) Ch. Maunoir et H. Schirmer,p.16.

(41) الذراع هو وحدة قياس تقليدية لقياس الطول، ويعتمد على طول الساعد: من المرفق إلى طرف إصبع الوسطى.، الذي يراوح طوله بين 45 و 67 سنم.

(42) تساوي حوالي 31 غرام.

(43) Ch. Maunoir et H. Schirmer,p.16-17.
(44) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 17.
(45) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 18.
(46) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 19.
(47) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 19-20.
(48) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 20.
(49) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 20-21 .
(50) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 21.
(51) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 22.
(52) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 22-23
(53) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 23 .

(54)نجحت فرنسا في استمالة سي حمزة بن بو بكر زعيم الفرع الشرقي من أولاد سيدي الشيخ بتعيينه سنة 1850 خليفة على الجنوب الجزائري.

(55) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 23-24 .
(56) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 24.
(57) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 24-25 .
(58) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 25 .
(59) هي سبخة صفيون (Safioune) (32° 16'19" شمالاً، 5° 6'22" شرقاً، بديل 129 م)، بحيرة مالحة شاسعة شمال واحة ورقلة، والتي وفقاً للسجلات السابقة جافة دائماً).
(60) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 25.
(61) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 26.
(62) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.28.
(63) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.29.
(64) وهي عبارة عن منخفض واسع مغطى بالمستنقعات يمتد إلى شرق مزارع تقرت وباتجاه الشمال.
(65) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.29-30.
(66) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. -30.
(67) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. -30-31.
(68) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 31.
(69) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 32.
(70) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 32-33.
(71) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 33.
(72)Augustin Bernard ; N. Lacroix , Historique de la pénétration saharienne , Giralt, Imprimeur – Photograveur, Alger, 1900, pp.50-51.
(73) Vuillot, L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, 65.
(74) François Demoulin, L'exploration du Sahara, Annales de géographie , Année 1931, 226, p. 345, (pp. 337-361)
(75) P. Vuillot, p.65-66
(76) François Demoulin, 226, p. 346..
(77) Mission de Ghadamès (Septembre Octobre, Novembre et Décembre), Rapport Officiels et Documents a l'appui, Publiésavec l'autorisation de M.le MaréchalDuc de Malakoff, Gouverneur Général de l'Algérie, Typographie Dulaux, Alger,1863,p.10.
(78) Vuillot, p.66.
(79) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.51.
(80) François Demoulin, n° 226, p. 346.
(81) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.52.
(82) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.51.
(83) Duveyrier, Les Toureg du nord, p.1-2.
(84) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.51.

(85) Dominique Casajus, Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle: Henri Duveyrier chez les Touaregs, Gradhiva, revue d'histoire et d'archives de l'anthropologie , 2003, 33, pp. p.13.
(86) François Demoulin, L'exploration du Sahara, Annales de géographie , Année 1931, 226, p. 346.
(87) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.58.

البيبليوغرافيا

1– باللغة العربية:

بدوي،عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة بيروت، 1993،

القلقشندي، أبوالعباس أحمد بن علي ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب زمان، تحقيق ابراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، دار الكتاب المصري، القاهرة ، 1982.

2– باللغات الأجنبية:

Aujogue Françoise , Papiers d'Henri Duveyrier (1840-1892) et de Charles Maunoir (1830-1901) 47 AP 1-25, Centre Historique des Archives Nationales, Paris, 2004.

Bernard Augustin & Lacroix N. , Historique de la pénétration saharienne, Giralt, Imprimeur – Photograveur, Alger, 1900.

Casajus Dominique, Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle: Henri Duveyrier chez les Touaregs, Gradhiva, revue d'histoire et d'archives de l'anthropologie , 2003.

Demoulin François, L'exploration du Sahara, Annales de géographie , Année 1931, 226, pp. 337-361.

Duveyrier Henri, Notizen über vier berberische Volkerschaften, während einer Reise in Algérien nach Hallûla-See und nach Laguàt in Februar, Marz und April 1857,gesammelt, Zeitschrift der deutscken morgenländischen Gesellschaft, t. XII, 1858.

Duveyrier Henri, Les Touareg du nord, Challamel Ainé . Libraire – Éditeur, Paris, 1864,Introduction.

Maunoir Ch. et Schirmer H., Journal de route de Henri Duveyrier, Augustin Challamel, Éditeur, Paris, 1905.

Mission de Ghadamès (Septembre Octobre, Novembre et Décembre), Rapport Officiels et Documents a l'appui, Publiés avec l'autorisation de M.le Maréchal Duc de Malakoff, Gouverneur Général de l'Algérie, Typographie Dulaux, Alger,1863.

Vuillot P., L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, pp.61-63.

Vuillot, P. L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, 65.
Barth Heinrich, Wanderungen Durch Das Punische Und Kyrenäische Küstenlan Oder Mâg'reb, Afrikîa Und Barká, Verlag von Wilhelm Herb, Berlin, 1849.